البعد النفسي ـ الاجتماعي للإعاقة

وموقف الإسلام منها

زينب محمد عيسى(*)

أثار موضوع الإعاقة اهتمام كل المجتمعات الدولية والإقليمية والوطنية، كونها من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية المتعددة التركيبات والانعكاسات من جهة، ونظراً لتأثيرها المباشر على الفرد والأسرة والمجتمع من جهة ثانية.

فالمعوق حتى عهد قريب، كان يعيش حالة من البتر الاجتماعي المتطرف لاعتباره عالة على المجتمع، وسبباً لاستنزاف موارده، لذا كانت الدعوة إلى التخلص منه والقضاء عليه.

فعلى سبيل المثال، في ألمانيا، حيث أدى تمجيد الكائن البشري في ظل "هتلر" إلى بذل جهد يرمي إلى القضاء على المعوقين جميعاً، لأنهم شوائب "تلوث الجدول الجيني".

وهتلر لم يكن أول من دعا إلى التخلص من المعوقين، ففي القرون الوسطى ساند "مارتين لوثر" بقوة قتل الأطفال المعوقين باعتبارهم "تجسيدات للشيطان"، وقبله بقرون أصرّ أهل أسبارطة الإغريقيون على الأمر نفسه(١).

هذه النظرة السلبية تجاه المعوق، تغيرت في السنوات الأخيرة وازداد اهتمام الباحثين والعلماء بالإعاقة، خاصة بعدما تنبهت الأمم المتحدة إلى الخطر الكامن في الازدياد المضطرد لعدد المعوقين في العالم، وقد أصدرت بتاريخ ١٦ كانون الأول عام ١٩٧٦ قراراً بجعل سنة ١٩٨١ "السنة الدولية للمعوقين".

تعريف الإعاقة

الإعاقة كما جاء تعريفها في موسوعة علم النفس، "نقص أو عيب يعتري الجسم والعقل والسلوك، ويعرقل السير الطبيعي للأمور، سواء على صعيد إنجاز الأعمال أم بالنسبة إلى التعلم، والولد المعوّق هو من يختلف في نموه العقلي والجسمي لأسباب موروثة أو مكتسبة"(٢).

وفي العام ١٩٩٣ أصدرت منظمة الصحة العالمية التصنيف الدولي للإعاقات الذي يفرق بين الاعتلال والعجز ونتائجه اليومية أو التعوق.

(*) اختصاصية في علم النفس.

الاعتلال: أي فقدان أو شذوذ نفسي أو جسدي أو عضوي.
العجز: أي حد أو انعدام ناتج عن اعتلال للقدرة على تأدية نشاط بالشكل أو في الإطار المعتبر طبيعياً بالنسبة إلى كائن بشري.
التعوق: ضرر يمس فرداً معيناً، وينتج عن اعتلال أو عجز عن تأدية دور طبيعي، بحسب عوامل السن والجنس، والعوامل الاجتماعية والثقافية، أو يحول دون تأدية هذا الدور بالنسبة إلى ذلك الفرد(٣).

العوامل المؤدية إلى الإعاقة

هناك عوامل كثيرة مسؤولة عن ارتفاع أعداد المعوقين، من هذه العوامل:
ــ الحروب ونتائجها، وغير ذلك من أشكال العنف والدمار والفقر والجوع والأوبئة، والحوادث الصناعية والزراعية، والحوادث المتصلة بالنقل والكوارث الطبيعية والزلازل، إضافة إلى نسبة الأمية بين السكان، وانخفاض الوعي بالخدمات الاجتماعية الأساسية والتدابير الصحية والتعليمية(٤).

الآثار النفسية والاجتماعية للإعاقة

ينتج عن الإعاقة آثار نفسية متعددة تتوقف حدتها على مدى تفاعلها مع البيئة النفسية لدى المعوق، وعلى المؤثرات البيئية التي يعيش فيها.
فمنهم من يتقبل إعاقته محاولاً إرضاء ذاته والقيام بأعماله بمفرده، واستحداث مواقف جديدة دون أن تحول إعاقته بينه وبين تفاعله الاجتماعي. فالشعور بذاتيته كونه فرداً له حقوق وعليه واجبات، يعزز ثقته بنفسه، ويدفع به إلى التعويض عن قصوره وعجزه.
ومنهم من يبالغ في تقدير القيود التي ستفرضها إعاقته عليه، متناسياً كفاءاته ومواهبه، فيرى الإعاقة مصدر عجزه، فيعتريه شعور بالنقص والألم وعدم الثقة بالنفس، وعدم القدرة على المواجهة، فيلجأ إلى الانطواء والعزلة.
فالكثير من الاضطرابات النفسية والسلوكية لدى المعوق ترجع إلى اضطراب في العلاقات العاطفية والاجتماعية، نتيجة الفروقات الجسمانية التي تخلفها الإعاقة، واعتبار المعوق إنساناً أقل شأناً وقيمة من سواه، ما يؤدي إلى تنامي مشاعر النقص والدونية لديه، فيعيش في حالة تهديد دائم لأمنه ومستقبله، ويتملكه إحساس بانعدام الكفاءة الاجتماعية، وانعدام التكافؤ بينه وبين الظواهر التي يتعامل معها.

عقدة النقص هذه تثير في "لاوعيه" مخاوف وتوتراً شديداً، وتخلق لديه صراعاً لا يحتمل، وهو إما أن يبتعد ويعيش في عزلة، يدين ذاته ويبخسها كونها مصدراً للخجل، ولذلك يصب عدوانيته على هذه الذات ومعاقبتها بالانكفاء والاستكانة، الأمر الذي يشكل إحباطاً حاداً، ويعمق الجرح النرجسي لديه.
وإذا حاول الخروج من قوقعته يخرج بحذر وتردد، كونه يخشى ردود فعل المجتمع الذي يحمل أفكاراً مسبقة عنه، فإما أن يكون مجتمعاً مقبلاً مبادراً بإيجابية

وحسن تعاون؛ وإما أن يكون في أكثر الحالات رافضاً نابذاً مثيراً لأقصى درجات القلق والتوتر.

الإسلام والإعاقة

إن كانت الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة قد تناولت الإعاقة في طرح أسبابها والنتائج المترتبة عنها، للحد من انعكاساتها وسلبياتها، فالإسلام بدستوره وشريعته قد تناول هذا الموضوع منذ اللحظات الأولى لإشراقه.

وأول موقف للقرآن الكريم تجاه الإعاقة، والذي يمثل ذروة الإنسانية هو وصفه المصابين بإعاقات جسدية أو نفسية بـ "أهل البلاء"، وهو تعبير كريم يلطف من حدة كلمة العاجز أو المعوق. وإشارته إلى وجود إعاقة أشد خطراً من تلك الإعاقات الظاهرة، والتي لم يلتفت إليها العلماء، تلك العاهة تكمن داخل الإنسان وبين جوانحه.

فنحن لو تأملنا هذا الكون لأدركنا بأننا لا نحس به بأعيننا ولا بآذاننا ولا بلمسنا، بل نحس به بأنفسنا، فهناك حس ظاهر وآخر بين الجوانح، وقد نشترك بالأول مع غيرنا، أما الثاني فلا يشاركنا فيه أحد، إنه عالمنا الخاص، ولا يطلع على هذا العالم سوى اللطيف الخبير. فكم من مرض أصاب الجسم ترك في النفس مرضاً كبيراً، وكم من مرض أصاب النفس خلق في الجسم مرضاً أكبر، وكم من أفراد يتمتعون بأجساد قوية سليمة في حين أنهم يحملون نفوساً مات فيها الحس والشعور، فهؤلاء إعاقتهم في نفوسهم، وأولئك إعاقتهم في أجسادهم، وقد وصف الله تعالى هذه الفئة بقوله: ﴿**لقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهذه الآية الكريمة تشير إلى تلك الفئة من البشر السليمة أعينهم وآذانهم، لكن قلوبهم بسبب ما هم عليه لا تخفق، وعيونهم لا ترى، وآذانهم لا تسمع، غافلون عن الله تعالى وعن الغاية من وجودهم، وعن كل معاني الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، هؤلاء هم أصحاب العاهة الحقيقية، بما تتضمنه من نقص وضعف ودونية.

ويصور القرآن الكريم لنا هذه الحقيقة بأسلوب آخر بقوله تعالى: ﴿**فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ❋ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج: ٤٥ـ٤٦].

نجد هنا أيضاً قاعدة من أروع القواعد التي يقوم عليها الفكر الإسلامي بإعلانه المباشر عن الإعاقة الحقيقية، فهي لا تصيب الجسم، إنما تصيب القلب والروح، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

والموقف الإسلامي من الإعاقة يتجلى أيضاً بنظرته السامية إلى المصاب، والتي إن دلت فإنما تدل على الاحترام والتقدير وإحساس الفرد بذاتيته وقيمته الحقيقية، والذي نتلمسه في قوله تعالى: ﴿**عبس وتولى ❋ أن جاءه الأعمى ❋ وما يدريك لعله يزكى** ❋

أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى * كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره﴾ [عبس: ١ ـ ١٢].

في هذه الآيات المباركة توجه من الباري عزّ وجل إلى الرسول الكريم، إلى معرفة القيمة الحقيقية للإنسان، والتي تترفع عن الماديات بأشكالها، والقائمة على الخير والعمل الصالح.

تلك النظرة السامية التي رفعت من شأن الرجل الأعمى وهو عبد الله بن أم مكتوم، حين جاء النبي (ص)، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي (ص)، فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه[٥].

فالأعمى كما نعرف لا يحس بالنظرة العبوس والجبين المقطب، ولكن رب العزة لا تخفى عليه خافية، فأنزل السورة الكريمة؛ فسجلت هذه الحادثة التاريخية رفعة الإسلام ورقيه في تهذيب النفس وإعدادها والأخذ بأوفر محاسن الأخلاق.

أوليس هذا الموقف بذاته يمثل أرقى درجات الإنسانية والتعاطف البشري، ويحقق أعلى مستوى في توازن الشخصية ونموها نمواً سليماً مطمئناً؟ هذا التوازن الذي تناولته الدراسات الحديثة، والذي أشار إليه فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي وسماه بتوازن الأنا.

وقد جاء في الحديث الشريف أنه: "**إذا طاب قلب المرء طاب جسده، وإذا خبث القلب خبث الجسد**"[٦]. "**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**"[٧].

ونظرة الإسلام تجاه المعوق كانت شمولية بحرصها على التقيد بأدنى أساليب المعاملة، فقد ورد في الحديث: "**لا تنظروا إلى أهل البلاء، فإن ذلك يحزنهم**"[٨]، "**لا تديموا النظر إلى أهل البلاء والمجذومين، فإنه يحزنهم**"[٩].

فالمعوق نتيجة لإعاقته يصبح حساساً لأدنى التصرفات الصادرة عن الآخرين، حتى النظرة الطويلة له يمكن أن تجرحه في قرارة نفسه، فيشعر عندها باختلافه عن الآخرين بسبب عاهته.

وفي رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى: **﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾** [النور: ٦١]، وذلك أن أهل المدينة قبل أن يسلموا كانوا يعتزلون الأعمى والأعرج والمريض، كانوا لا يأكلون معهم، وكانت الأنصار فيهم تيه وتكرّم، فقالوا: "إن الأعمى لا يبصر الطعام، والأعرج لا يستطيع الزحام على الطعام، والمريض لا يأكل تماماً كما يأكل الصحيح"، فعزلوا لهم طعامهم على ناحية، وكانوا يرون أن عليهم في مؤاكلتهم جناحاً، وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون لعلنا نؤذيهم في مؤاكلتهم، فلما قدم النبي (ص) سألوه عن ذلك، فأنزل الله: **﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾**[١٠].

ويطلعنا التاريخ على عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء كانوا يعانون من إعاقات جسدية متنوعة، ومع ذلك فقد تركوا في تاريخنا العلمي والفكري مكانة تستحق كل احترام وتقدير (أبو العلاء المعري، طه حسين...).

ولعل المعيار الذي وضعه الإسلام، والذي من خلاله يتم التفاضل بين أبناء البشر هو من أنجح العلاجات النفسية، حيث أفسح المجال للسوي والمعوق الانطلاق من موقف واحد في ميدان الخير والعلم الصالح والتقوى، والفائز في هذا السباق هو الأفضل، ولو كان به عرج أو شلل أو أي إعاقة أخرى.

هذا الفوز والإحساس بالأفضلية يؤدي إلى استقرار النفس والشعور بالطمأنينة والرضا وتخطي الإحساس بالنقص والدونية.

وقد توجَّه الإسلام نحو أهل البلاء بعلاج آخر، وهو الصبر، ولعله من أصعب طرق العلاج، لذا حرص الإسلام على تربية الأفراد أسوياء كانوا أو أصحاب إعاقات على الصبر والمصابرة منذ نشأتهم، فالصبر على المصيبة يؤدي إلى الإيمان بالله وبقضائه وإرادته، ففي قوله تعالى: ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾ [البقرة: ١٥٥ــ١٥٧].

وفي الحديث: "**من ابتُلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد**"(١١).

"**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يهمه إلا كفر الله به من سيئاته**"(١٢).

"**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط**"(١٣).

المراجع والمصادر

١. بيتر كولريدج، "الإعاقة والتحرير والإنماء" ص٧٣,٧٤.
٢. أسعد مرزوق، "موسوعة علم النفس"، مراجعة عبد الله الدايم، ص٢٠٤.
٣. برنامج العمل العالمي المتعلق بالمعوقين، "الأمم المتحدة"، نيويورك، ١٩٨٣، ص٣.
٤. م.ن. ص١١ــ١٢.
٥. الطبرسي، "مجمع البيان"، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، الجزء ٣٠،
٦. محمد هويدي، "التفسير المعين للواعظين والمتعظين"، الطبعة الأولى، بيروت، دار القارئ، ١٩٨٧، ص١٠٩.
٧. محمد عثمان نجاتي، "الحديث النبوي وعلم النفس"، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٩، ص٢٧٠.
٨. محمد باقر المجلسي، "بحار الأنوار"، الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣، ج٧٢، ص١٦.
٩. م.ن. ص١٥.
١٠. م.ن. ص١٤ــ١٥.
١١. محمد هويدي، "التفسير المعين للواعظين والمتعظين"، ص١٦٥.
١٢. محمد عثمان نجاتي، "الحديث النبوي وعلم النفس"، ص٢٩٧.
١٣. م.ن. ص٢٩٧.